

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

الدكتور: عمر بن سليمان

جامعة ابن خلدون تيارت- الجزائر.

تأصيل التسامح في التراث ليس عملاً إسقاطياً ولا تبريراً. بل هو الكشف عما وجد فعلاً في التراث العربي الإسلامي وإعادة رسم لصورة فقدت أجزاء هامة منها. وفي ذلك نجد أن مبدأ التسامح لم يتجلى فقط في المستوى الفكري بل تعداه ليشمل مستويات أخرى كالمستوى السياسي والعائدي وسائر التجارب التي عرفتھا المجتمعات العربية الإسلامية.

التأصيل لغة: هو أصل كل شيء، يقال استأصلت الشجرة، أي ثبت أصلها¹، والتأصيل الإسلامي للتسامح يعني تناول الموضوع من منطلق إسلامي، بالرجوع إلى مكانة وأهمية التسامح أو ما يشير إليه من نصوص القرآن والسنة النبوية الشريفة.

والتأصيل الثقافي للتسامح في الفكر العربي المعاصر هو بعث الوعي وتوجيهه نحو عالمية مفهوم التسامح داخل الثقافة العربية الإسلامية، وذلك بإبراز عالمية الأسس النظرية التي تقوم عليها، والتي لا تختلف جوهرياً عن الأسس التي قامت وتقوم عليها في الثقافة الغربية ما دام المقصود في ذلك هو الإنسان بصفة عامة.²

فبأي معنى يمكن الحديث عن التسامح وعن حقوق الإنسان في فكرنا العربي الإسلامي المعاصر؟ وكيف السبيل إلى تأصيله ثقافياً في وعينا وواقعنا وتراثنا بصفة عامة؟ وكما ذكرنا سابقاً فالتأصيل من أصل الشيء، وقد يكون المؤصل مألوفاً لكن أصله غير معروف.

بمعنى أنه غير معروف عند البعض، كالمفاهيم المعروفة المتصلة بأصول تراثية دون أن تكون تلك الأصول معروفة، لكن التأصيل يكون أيضاً لما يطرأ على الثقافة من

¹ - ابن منظور، لسان العرب، المحيط، دراسات العرب، بيروت د ط ج 1 1988 ص 68.

² - الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان، بدون ط 1995 ص 32.

مفاهيم وغيرها ، فيقوم من يبحث لتلك المفاهيم عن أصل³ . وما نبحت التأصيل له في الثقافة العربية الإسلامية مفهوم التسامح هذا المصطلح الذي شغل العديد من المفكرين في العصور الحديثة والمعاصرة.

وفي هذا يعتبر الكندي أول من أصل لهذا المفهوم في الفلسفة الإسلامية إذ دعا إلى التسامح مع المخطئ بل أكثر من ذلك يذهب حتى إلى المطالبة بشكره على الجهد المبذول، والأمر لا يتوقف عند الكندي بل يتعداه إلى ابن رشد الذي شهد له بالتسامح من طرف نظرائه ومن عايشهم، هذا التسامح الذي عرف بالدفاع عن آراء ومعتقدات الآخرين، وبضرورة الإطلاع عليها والاستفادة منها⁴

كما نادى محمد عابد الجابري في الفترة المعاصرة بضرورة تأصيل مفهوم التسامح في التراث بعدما تعرض في كتابه قضايا في الفكر العربي المعاصر إلى الجوانب الإيجابية التي بواسطتها يمكن التفتح على الآخر هذا بالخروج عن التعصب والتمذهب والانفراد بالرأي وعدم احترام الآخر، وفي مناداته بتأصيل المفهوم في التراث أي الوقوف عند المفاهيم الحديثة المنقولة في الفكر الأوروبي كمصطلح الحداثة والتسامح والعمولة وغيرها من المصطلحات التي تتباين مع ما تحتويه .

فمثلا كلمة **tolérance** لا تناسب بالضرورة مصطلح التسامح باعتبار المصطلح لم يرد في النص ولو مرة واحدة، فالتساهل والعفو والصفح والإنصاف و المساواة، فكلها مصطلحات غاية في الأهمية وأبلغ من أي كلمة أو مصطلح غربي إلا أن الأمر الذي لا يختلف فيه اثنان هو أن **toleration** أو **tolérance** مصطلحات حديثة لا تعبر عن المغزى الحقيقي لكلمة تسامح التي اختيرت لتكون معنى مقابل للمصطلحات المذكورة⁵. هذا الذي بدى غريبا، إذ كيف إستطاع الفكر الإسلامي إحضار مثل هذه المصطلحات بالرغم من غرابتها وصعوبة إحتوائها؟"

وحسب الجابري فإن عملية تبئة المفاهيم الحديثة تملها الحاجة المتمثلة في المشاكل التي أصبحت تعيشها المجتمعات الإسلامية والعربية ومنها التطرف الديني باسم الدين أو ضده، التطهير العرقي، التفكير الأحادي الذي يطمح للسيطرة على العالم، وفي

³ - الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية، المرجع نفسه ص34

⁴ - المرجع نفسه ص39

⁵ - الجابري محمد عابد ، المثقفون في الحضارة العربية، المرجع السابق ص47

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

نظرة أي إعطاء الأسبقية للآخر هو جوهر التسامح⁶ أما أركون فتناول موضوع التسامح بالأسلوب المباشر القائل بأن التسامح لم يعرفه السياق الإسلامي تاريخيا، هذا بالرغم من تعرضه للمصطلح المقابل والمتمثل في اللاتسامح حيث انطلق من أن التسامح لا يمكن فهمه فهما تقنيا دقيقا وواضحا إلا بربطه بمفهوم اللاتسامح *Intolérable* ليخلص إلى التأكيد بأن التسامح كمفهوم لم يعرفه الإسلام تاريخيا وأنه يعتبر من أنواع اللامفكر فيه في الفكر العربي الإسلامي.⁷

أما التسامح كممارسة فعلية فإنه هو الآخر كان غائبا في المجتمعات الإسلامية لعدم وجود شروط تحققه أي حماية ممارسيه، وبهذا يبقى مفهوم التسامح حديثا بالنسبة إلى المجتمع الإسلامي، ولا يليق إلا بمجتمعاته الأصلية ويقصد بذلك أوروبا.⁸ أما "علي أومليل" في مؤلفه في شرعية الاختلاف فقد اهتم بمرحلة تاريخية تعود إلى ما قبل الضغط الأجنبي إلى مرحلة كانت فيها المجتمعات الإسلامية في موقع قوة، وكانت الغاية التي وجهت على أومليل في حديثه عن التسامح والاختلاف.⁹

موقف الإسلام من التسامح:

وبرجعنا إلى موقف الإسلام من التسامح نجد أن الإسلام يتخذ التسامح مكان الصدارة، وليس على مستوى المبادئ فحسب وإنما على مستوى التطبيق العملي الذي يتهذب به التاريخ العالمي.

فالإسلام قد نص على التسامح مع مختلف الأديان وجاء في الآية الكريمة مصداقا لقوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"¹⁰.

وهذا يعني أن الذين آمنوا أي المسلمين والذين هادوا أي اليهود وكذلك المسيحيين والصابئة، أي كل الذين يؤمنون بالله وما هو صالح لا يخشى أن يعذبوا في الآخرة أو

⁶ - راجي محمد، روح التسامح في الفكر الراشدي، مجلة فكر ونقد، العدد 66، دار النشر المغربية، الدار البيضاء المغرب بدون طبعة 2005 ص 61

⁷ - الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية المرجع السابق ص 44

⁸ - المرجع نفسه، ص 46.

⁹ - محمد أركون، التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي، مقال ضمن المجلة العربية لحقوق الإنسان، العدد 1995، 2، ص 11.

¹⁰ - سورة المائدة، الآية 62.

الدكتور: عمر بن سليمان

يحرّموا من النعيم ،أليس في ذلك دليل على أن الإسلام يتجاوز في تسامحه طوائف المسلمين إلى بقية الأديان.¹¹

ولا ننفي التعصب وعدم التسامح عن تاريخ المسلمين نفيا مطلقا ملائكيا ولكن التسامح موجود ومجسد في عمق ومحتوى العقيدة الإسلامية، وهذه الروح التسامحية نجدها حاضرة في التجربة الفلسفية العربية الإسلامية كما أشرنا إلى ذلك سابقا بدءا من الكندي وصولا إلى ابن رشد.¹² وكيف تعاملنا مع إشكالية العقل والنقل، أي التعامل مع الموضوع وفق المنظور العقلي دون الخروج عن الأصل.

وعلى هذا الأساس يحاول المفكر العربي محمد عابد الجابري أن يؤصل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي من خلال مفهومي الاجتهاد والعدل، ولا سيما على الصورة التي يأخذها مفهوم العدل عند ابن رشد والمعتزلة والفرق الكلامية العربية الإسلامية التي كانت تركز على مفهومي التسامح من جهة وحرية الإنسان من جهة أخرى.¹³

وفي هذا يبين محمد عابد الجابري أن الإمام أبو حنيفة كان من أبرز ممثلي الاتجاه التسامحي في الإسلام وهو الذي عرف عنه قوله المشهور: " لا نكفر أحدا بذنب ولا ننفي أحدا من الإيمان". وضمن هذا السياق يصل الجابري إلى إعادة بناء مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي بصورة يتوافق فيها مع المعنى الذي يوظف فيه داخل الفكر الأوروبي كمفهوم ليبرالي وفي بعض المواقف العربية الإسلامية كما هو الأمر عند المفكر العربي محمد أركون.¹⁴

عليه نقول: أن الإسلام يعد من أكثر نماذج الحضارة الإنسانية تسامحا في الدين والفكر والاجتماع، فالإسلام هو أول دين في تاريخ الإنسانية الذي يعطي للإنسان الحق في اعتناق عقائد سماوية أخرى غير متفقة مع العقيدة الإسلامية، وقد أقر لأصحاب هذه العقائد ممارسة شعائهم الدينية في ظل الإسلام وحكمه.

¹¹ - أركون محمد، التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي- مقال ضمن المجلة العربية لحقوق الإنسان- عدد 2، 1995.

¹² -أركون محمد، التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي -المرجع السابق، ص 14.

¹³ - أعراب إبراهيم، التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي مجلة المستقبل العربي -العدد 224 1997 ص55.

¹⁴ - أعراب إبراهيم، المرجع السابق ص55

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

هذا وقد تعايشت في ظل الحضارة الإسلامية أقوام وشعوب وعروق وقوميات وأجناس وثقافات مختلفة، والفاثحين العرب كانوا أكثر الفاثحين تسامحا في التاريخ وهذا بشهادة الآخر الذي كثيرا ما نعت العربي والمسلم بصفة عامة بكل النعوت الدالة عن قصوره في التعامل مع مثل هذه المصطلحات التي تبدوا مستحدثة بالنسبة إليه، أي أن تعصبه ولا تسامحه لا يمكنه من إدراك ذلك.

هذا وبلغ من سماحة الإسلام وتسامحه أنه أخذ بقلوب كبار العلماء والمفكرين في العالم الذين أخذتهم الدهشة بما تميز به الإسلام من قيم التسامح والحب والعدل والمساواة حيث يقول المؤرخ الشهير غوستاف لوبون في كتابه تاريخ العرب مقولته المشهورة وهي " ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب ويقول أرنولد توينبي في كتابه الدعوة إلى الإسلام: " لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سببا في إنجاء كثير من الصليبيين إلى الإسلام والدخول فيه ¹⁵ .

ومهذا ضمن الإسلام حرية الاعتقاد للمسلمين فمنع الإكراه في الدين وأقر التسامح الديني الذي لا يعرف له التاريخ مثيلا. فالإسلام لا يكره أحد على الدخول فيه واعتناقه ¹⁶ قال تعالى: « لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " ¹⁷ .

وهو يؤكد أن التسامح شكل الأساس في الإسلام الذي يبرهن على حرية العقيدة لغير المسلمين، وحرية التعبد وعدم الإكراه وإحترام الآخر.

ويقول ابن كثير في هذا السياق " أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام فإنه يقين واضح جلي في براهينه ودلائله. وفي هذا المنحى الإنساني العظيم يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا " ¹⁸ .

وجاء في القرآن الكريم عدد كبير من الآيات العصماء التي ترفع من قيم التسامح والسلام حقائق كلية وجودية قال تعالى: " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

¹⁵ - علوان عبد الله، معالم الحضارة في لإسلام وأثرها في النهضة الأوربية دار السلام بيروت لبنان ص 156.

¹⁶ - علوان عبد الله، المرجع السابق ص 158.

¹⁷ - سورة البقرة، الآية 256.

¹⁸ - صحيح البخاري، رقم الحديث 67.

عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"¹⁹. وجاء أيضا في قوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"²⁰ وقال تعالى: "فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"²¹.

ما حارب الإسلام العصبية والتعصب وفي ذلك يقول: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"²².

ويقول عليه السلام أيضا: "من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردّي فهو ينزع بذنبه"²³.

وفي سلوك النبي صلى الله عليه وسلم تنهض حقائق التسامح والحب بين البشر وتتأصل كل المعاني النبيلة للإنسان والإنسانية لترتفع إلى مقام الأساطير الخالدة. فبعد سنين طوال (إحدى وعشرين عاما) من التعذيب والقهر والتنكيل والحرب والتهجير الذي عاناه النبي الأكرم من قبل أهل مكة استطاع النبي أن يدخل مكة ظافرا قويا منتصرا، ونادى في أهل مكة قائلا لهم: ما ترون أنني فاعل بكم؟ فأجابوه أخ كريم وابن أخ كريم. وعندها قال لهم النبي الأعظم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. فهل بعد هذا الصفح صفح أو بعد هذا التسامح تسامح أو إحسان!.

لو شاء الله سبحانه وتعالى لأمن الناس جميعا، ولذلك فإنه عز وجل ينهى عن الإكراه ويترك للخلق حرية اعتناق الإسلام أو غيره من الأديان وفي هذا يقول صوت السماء ناهيا عن إكراه الدين "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ"²⁴.

هذا وقد بين محمد عبده في كتابه "الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" أن الإسلام عرف التسامح كتقليد وممارسة في مجال السياسة وفي مجال العلم والفلسفة سواء بين المسلمين أنفسهم أو بين المسلمين وبين غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى.

¹⁹ - سورة فصلت، الآية 34.

²⁰ - سورة الأعراف، الآية 199.

²¹ - سورة الزخرف، الآية 89.

²² - رواه أبي داود

²³ - رواه أحمد

²⁴ - سورة يونس الآية 99.

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

كما كان أهل الذمة الذين يعيشون داخل الدولة الإسلامية يعاملون أحسن معاملة، وكثيرا ما كان الخلفاء يقربون إليهم بعض أهل الذمة واليهود والنصارى، ويعاملونهم معاملة حسنة كريمة، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه، وكان جورجيس بن بختشوع مقربا لدى الخليفة المنصور من بين أطبائه، ولما عرض عليه المنصور الإسلام أجابه: "رضيت بأن أكون مع آبائي في جنة أو في نار" فضحك المنصور وأمر له بعشرة آلاف دينار تكريما له و إحتراما لمعتقده.²⁵

لقد كان نبي الله الأعظم نبراس حب وإخاء ومساواة، يقول صلى الله عليه وسلم مخاطبا الجماعة: "لن تؤمنوا حتى ترحموا"،²⁶ فرد البعض: يا رسول الله كلنا رحيم، فقال عليه الصلاة والسلام: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة عامة للناس لأن الرسول الكريم كان دعوة رحمة، فكان يصفح عن قريش عندما تكون له الغلبة ويحاول إقناعهم بالحجة. قال تعالى: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغَحْ الصَّغْحَ الْجَمِيلَ».²⁷ هذا ويسجل للنبي عليه الصلاة والسلام حكمة قوله في التسامح والحب بين المسلمين كافة حيث يرفع إعلانه القدسي حول التسامح بين المسلمين قائلا: "لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا".²⁸

وضمن هذا السياق يمكن القول أن مفهوم التسامح عرف حضوره في التراث العربي الإسلامي بجوهر المضامين الاجتماعية التي توظف اليوم داخل الفكر الأوروبي كمفهوم ليبرالي، فالإسلام في جوهره شريعة السلام والرحمة والإنسانية وذلك يتمثل بقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"²⁹ وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة.³⁰ وهو في كل الحالات يحذر من الاعتداء على أهل الذمة إذ يقول عليه السلام "من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة".

²⁵ - شلتون محمد، الإسلام عقيدة وشرعية ، المرجع السابق ص82.

²⁶ - حديث رواه الطبري.

²⁷ - سورة الحجر الآية 85.

²⁸ - الحديث 35، رواه مسلم.

²⁹ - سورة الأنبياء الآية 107

³⁰ - رواه مسلم.

الدكتور: عمر بن سليمان

فالروح التسامحية تسجل حضورها كذلك في عمق المعاناة والتجربة الفلسفية العربية بدءاً من الكندي وابن رشد الذي عرف بعشقه وحبهِ للتسامح واحترامه لرأي الآخر والاعتراف بفضله لا سيما الفلاسفة المتقدمين في بلاد الإغريق سواء كان هذا الآخر مشاركا أو مباينا له في الرأي والمعتقد. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى كتابات الصوفيين، والإشارة إلى الانطلاقات الفكرية التسامحية الكبرى لكتاب من أمثال الكندي والتوحيدي والمعري وابن عربي وما عبر عنه من حب للإنسانية، وبالأخص للآخر الذي يقاسمه الحياة والعيش المشترك.

إن رفض الإسلام لكل الأساليب العنيفة يعني منطقياً أن فكرة التسامح بالمعاني التي دلت عليه في التراث فكرة أصيلة فيه، هذه الفكرة المتجلية في سلوكه ونظامه وتشريعاته، بالرغم من وجود الاختلافات في المجتمعات الإسلامية بكل أشكالها وصورها واقعا³¹.

كما أن هناك ما يدل على التسامح في عدد من الوثائق العربية الإسلامية في الجاهلية كما في الإسلام، وخير دليل حلف الفضول الذي أبرم في أواخر القرن السادس الميلادي بين فضلاء مكة في دار عبد الله بن جدعان، وتعاهدوا على أن لا يدعوا ببطن مكة مظلوماً من أهلها أو من دخلها من سائر الناس، إلا وكانوا معه على ظالمه حتى ترد مظلّمته .

فقد إتخذ الإسلام موقفاً إيجابياً من حلف الفضول الجاهلي ، وقد ألغى النبي محمد جميع أحلاف الجاهلية باستثناء حلف الفضول، و حينما سئل عنه أجاب : شهدت مع أعمامي في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو أنني دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت.³²

تجليات التسامح في التراث:

لقد تحدث القرآن الكريم عن حرية التدين في العديد من آياته هذا ما يؤكد أن التسامح شكل ويشكل الأساس في القيم الإسلامية وفي الإسلام ذاته الذي أشار إلى حرية التعبد وعدم الإكراه أو الإجبار على إعتناق الدين، وإلتزام إحترام الآخر في معتقداته وثقافته بصفة عامة .

³¹ - عمر هاشم أحمد ، الإسلام دين التسامح ، دار الفاروق القاهرة مصر ط 1 2006 ص 11.

³² - عبد الحسين؟، شعبان فقه الإسلام ، دارأراس للطباعة والنشر ط 2011 أبيل العراق ص 95 ص 98

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

وبذلك يؤكد الكثير من المفكرين على شاكلة محمد أركون ومحمد عمارة، ومحمد عابد الجابري وحسن حنفي و حسين مروة وعبد الحسين شعبان وعلي أومليل صاحب مؤلف الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، وكذا رواد الحركة الإصلاحية العربية أمثال محمد عبده والظاهر بن عاشور والشيخ عبد الحميد ابن باديس وغيرهم كثيرون انه لم يرد ذكر التسامح لفظا في التراث ونقصد في ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

لكن الشريعة الإسلامية ذهبت إلى ما يفيد معناه، هذا رغم تعدد الإجهادات في التفسير والتأويل، وقد جاء بما يقاربه أو يدل على معناه، وذلك حين تمت الدعوة إلى التقوى والتشاور، والتأزر والتواصي والتراحم والتعارف، والمودة والرفق، وكلها دلالات على التسامح، مؤكدة في ذلك حق الاختلاف الذي خص به مخلوقاته، إذ على الرغم من التشابه بين أفراد النوع الواحد وبين سائر الأنواع في الكون، فإن التباين قد يقل أو يكثر، يزيد أو ينقص بين جميع الموجودات، وبين أفراد النوع البشري في اللون وفي اللسان والحجم والفكر والإجتماع وسائر الأحوال³³، قال تعالى: " وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ"³⁴ والحرية في المعتقد بين البشر جميعا والذي يشكل المرجعية الأساسية للشريعة الإسلامية. فإن متابعة بعض آيات القرآن تحيلنا إلى صورة مشرقة ومتقدمة للسلوك التسامحي الذي إعتد عليه الإسلام .

هذه الدلالات في النص أعطت زادا فكريا لممارسات متقدمة في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدون بشأن إعتداد التسامح كمنهج في السلوك والتعامل مع الآخر. وقد وردت تطبيقاته في العديد من المواثيق و النصوص السياسية ،كحلف الفضول، ودستور المدينة و صلح الحديبية وكذا العهدة العمرية وما أعطته من دروس محلية وخارجية أي فيما بين المسلمين وبين المسلمين والآخر، وذلك في إحترامه وأمنه وحرية وصيانة حقوقه على الرغم ما صدر منه بإستمرار من عنف وتضليل لحقيقة الإسلام، إذ لم يتوانا في نعمتا بكل النعوت وإيصالها للآخر في أبشع صورها.

³³ - جيلالي بوبكر ، مقال ضمن مجلة الكلمة المعلنون ب الاختلاف و التواصل و الحوار و التسامح العدد 84 الصادرة سنة 2014 مؤسسة التاريخ للطباعة و النشر ، بيروت لبنان ص58.

³⁴ - سورة الروم الآية22

الدكتور: عمر بن سليمان

هذا وورد مفهوم التسامح في النص القرآني والحديث النبوي وفي التراث العربي الإسلامي بما يفيد الصفح والعفو واللين والرحمة مع الآخر في ظل النظام الإسلامي وخارجه، أي في التعاملات مع الملل الأخرى والمجتمعات الغير إسلامية، أي إحترام الآخر بغض النظر عن إنتمائه وديانته وثقافته، أي التعامل معه كونه إنسان مكرم ومصان في نظر الإسلام، وفي ذلك قوله تعالى هو يتوجه بالخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْصَبْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ³⁵ لقد حوت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مواقف عديدة تعكس علاقته وإستجاباته المختلفة التي إتسمت بالتسامح مع من يخالفونه الرأي والمعتقد، والتي عكست نبل سيرته وفضائل خلقه التي وصفها القرآن الكريم بالخلق العظيم، قال تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"³⁶. كما يمكن رصد عدد من تجليات المواقف التي تعبر عن التسامح في الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر من خلال ما توصل إليه الدكتور محمد عابد الجابري والتي جاءت أفكاره مخالفة لتلك التي حكمت على التراث العربي الإسلامي بالقصور القدرة على تقبل فكرة التسامح التي لم يعرفها التراث في نظرهم وإن عرفها فهو عاجز على مواكبتها والتعامل معها،³⁷

على شاكلة محمد أركون وعلي أومليل وغيرهم كثيرون والذين تأثروا بالفكر الغربي تأثراً أوصلهم إلى مرحلة الإفراط في الحكم على عقم التراث العربي الإسلامي ومحدودية معرفته بالراهن. أي أن مفهوم التسامح الذي يعبرون عنه جاء من منطلق الواقع الأوروبي وبالأخص الفرنسي منه، وعكس هؤلاء يرى الجابري أن المفهوم ظهر في فكر أوائل المتكلمين فرقة القدرية والمرجئة في بداية الدولة العربية الإسلامية، والذي مثل محورا هاما في إهتماماتهم الفكرية وذلك من خلال مسألة الإيمان.أي عدم تكفير هذه الفرق لمرتكب الكبيرة يومها عكس جانباً واسعاً من التسامح وقع فيه الفصل بين الإيمان والعمل³⁸.

³⁵ - سورة الحجر، الآية 85.

³⁶ - سورة القلم، الآية 04.

³⁷ - أومليل علي، في شرعية الاختلاف مرجع سابق ص11.

³⁸ - الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت

لبنان بط 2000 ص42

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

إذ في نظرهم العمل لا يبطل الإيمان، حتى وإن تعلق الأمر بارتكاب معصية أو عدم القيام ببعض الواجبات الدينية. فكان من أبرز هؤلاء المتسامحين أبو حنيفة كما أشرنا إلى ذلك سابقا والذي قال: لا نكفر أحدا بذنب ولا ننفي أحدا من الإيمان.³⁹ كما نجد الجابري في دراسة أخرى عن التسامح يتعرض إلى فكر ابن رشد بإعتباره قمة في التسامح مع المسلمين أنفسهم وغيرهم من أهل الملل الأخرى، ويبلغ التسامح قمته في موقفه من خلال آراء المخالفين والخصوم. وفي ذلك يتوجه باللوم إلى الغزالي بإعتباره أحد النماذج التي لا تحاول إلتماس الأعذار للخصم والتسرع في الحكم عليه بالأحكام العامة والتي كثيرا ما تكون سلبية في حق الآخر، أي الحكم بفساده دون إعتبار للمقدمات والأسباب الحقيقية التي أدت به إلى ذلك. هذا ما إكتشفه ابن رشد من خلال مؤلف الغزالي المعروف بـ تهافت الفلاسفة وهو حكم عام على كل من أراد أن يوظف العقل في تأويل النصوص أو إبداء الآراء بأحكام عقلية حتى وإن كانت ملتزمة بإحترام المبادئ و التراث الإسلامي بصفة عامة⁴⁰.

يقول ابن رشد في حكمته الفلسفية ينبغي لمن أقر طلب الحق ،إذا وجد قولاً غير ملائماً ولم يجد مقدمات محمودة تزيل عنه ذلك القول، أن لا يعتقد أنه باطل، بل لابد من الرجوع إلى أصل السؤال ومحاولة معرفة الأسباب في ذلك، هذه الحكمة في التعامل مع القضايا عند ابن رشد دفعت بالجابري إلى تبني مفهومه في التسامح في العصر الحديث وهو ضرورة إحترام الحق في الإختلاف خاصة أن هذا المفهوم مقترن بقيمة العدل⁴¹.

من هنا نجد أن نظرة الجابري للتسامح جاءت متصلة مع منهجه العام الذي يستلزم ضرورة الربط بين المكونات العقلانية العادلة والمتسامحة للتراث⁴². عليه نقول أنه وعلى الرغم من أن الجابري إستطاع أن يبرهن على الحضور الهام للتسامح في التراث، إلا أنه وقف هو الآخر عند عتبة الحد الفكري النظري، ولم يبادر في التساؤل عن كيفية إدراج المفهوم في العالم الواقعي الملموس، كالحقل السياسي مثلا لما له من أهمية

³⁹ - الجابري محمد عابد ، المرجع نفسه ص46.

⁴⁰ - الجابري محمد عابد ، المرجع نفسه ص48.

⁴¹ - الجابري محمد عابد ، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بط 1997 ص24.

⁴² - الجابري محمد عابد ، المرجع نفسه ص28 ص32

في معالجة القضايا الخاصة بالشعوب والمجتمعات. بهذا نحن لا نعاتب الجابري في إهتمامه بالجانب النظري في معالجته للتسامح كمفهوم في الفكر العربي الإسلامي المعاصر إنطلاقاً من التراث، بل نقول أن أفكار الجابري ومنهجه في التعامل مع مثل هذه القضايا كانت تتطلب التجسيد الفعلي الواقعي، بإعتباره الفكر الذي كان قريب من إنصاف التراث مقارنة بأولئك الذين حكموا عليه بالقصور وعدم القدرة في مجارات الواقع والتفاعل معه.

والنماذج كثيرة خاصة تلك التي تأثرت وتبنت كل ما هو غربي، الأمر الذي أدى بها إلى الحكم على التراث الإسلامي بالتعصب وعلى أن مصطلح التسامح وغيره من المصطلحات الحديثة كالحرية والديمقراطية والليبرالية فهي مصطلحات تندرج ضمن أنواع اللامفكر فيه في الفكر العربي الإسلامي هذا ما أشار إليه محمد أركون وغيره من المفكرين العرب الأنواريين أو الحداثيين على شاكلة علي أومليل والذين أرجعوا المصطلح إلى أصله الأوروبي أي أن التسامح إذا خرج عن محيطه يفقد في نظرهم دلالاته ومعناه. كما عمل المفكرون العرب في عصر النهضة من جيل محمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وخير الدين التونسي، ورفاعة الطهطاوي، ولطفي السيد، والطاهر حداد، على تأصيل المفاهيم الغربية الحديثة داخل المرجعية التراثية والثقافية الإسلامية. هذا يعني أن الحرية والتسامح والعقلانية وغيرها من المفاهيم المعاصرة ليست مقصورة على أوروبا وثقافتها ولا مشروطة بسياقها التاريخي وأن هذه المفاهيم أصيلة في التراث العربي الإسلامي، وفي غيره من تراث الإنسانية، وهي تتجلى بصور أخرى وفي نسق من المفاهيم الأخرى كالجهاد والعدل والمساواة.

في الأخير نقول أنه قد ثبت أن نهج التسامح هو نهج إسلامي أصيل وليس فكرة غربية مستوردة، وهذا ما توصلنا إليه من خلال الدراسة التي توقفنا بواسطتها عند العديد من المحطات التي ساعدتنا في إدراك القيمة الحقيقية للتسامح بإعتباره سلوكاً إسلامياً أثبتته النصوص التي عبرت عليه في أكثر من أية وحديث.

لقد رفع الإسلام شعار التسامح قانوناً كلياً لا يقبل التجزئة وجعله دستوراً لحياة البشر، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وهذا يعني أن الأساس العقائدي لقضية التسامح راسخ في فلسفتنا وتراثنا وديننا الإسلامي. والمطلوب هو إحياء تربوي لقيم التسامح الإسلامي، والانتقال بها من مجرد الحضور القيمي في مدونات الثقافة إلى حضور فعلي وقيمي عملي في إطار الحياة الاجتماعية والسياسية كما فكر في ذلك العديد

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

من المصلحين العرب والمسلمين، من خلال أعمالهم الهادفة إلى تأصيل التسامح في الأوساط الإجتماعية لما لهذا المصطلح من أهمية في حياة الفرد والمجتمع، كالمصلح التونسي الطاهر بن عاشور والجزائري عبد الحميد ابن باديس الذي فكر في مستقبل الأجيال فأراد في ذلك إدراج المصطلح في البرامج التربوية حتى ينشأ الفرد في أوساط فاضلة يسودها العدل والحرية والمساواة والتي بواسطتها يتحقق التسامح والتعايش واحترام الغير.

بقي أن نقول أن العبرة ليست في المفهوم في حد ذاته، وإنما هي في التصور الذي يصدق عليه أو يستغرقه من جهة، وعن المرجعية التي تحدد خلفية هذا المفهوم وأبعاده العقدية والسياسية والمدنية من جهة أخرى، وتجنبنا لكل شبهة فما علينا إلا أن ننظر وننحت المفاهيم والمصطلحات التي تعبر وبكل أمانة علمية وعقدية عن كيانات الحضاري إذا ما أردنا أن نتجنب استعارة مثل هذه المفاهيم التي كثيرا ما تقودنا إلى أن نكون مسيرين فيها لا مخيرين.

عليه لابد أن أشير إلى أن تأصيل التسامح أمر يستدعي إستعادة المثقفين مكانتهم في الحياة الإجتماعية، وذلك بترسيخ ثقافة الحوار والتواصل، وإستبعاد ثقافة العنف والصدام، فخلق ثقافة حقيقية تلتمس أصولها من الماضي وتسائر الحاضر هو أمر يقتضي من جانب آخر التفاعل مع العصر وتوجهاته، وهذا الإختيار يتطلب قطيعة مع الفكر الأحادي وتجديد قيمة العفو والتسامح والإرتقاء بها إلى مستوى إحترام الآخر ولا نقصد بذلك الجانب العقائدي أو الديني بل السلوك الإنساني في تعاملاته مع الآخر، إذ بهذا نؤكد على أن تأصيل التسامح في التراث العربي الإسلامي تأصيلا يستوجب الكشف عما وجد فعلا وإعادة رسم صوره المفقودة حتى يتم توظيفه والتعامل معه بفاعلية لا بإنفعالية.

الدكتور: عمر بن سليمان

الهوامش:

1. ابن منظور، لسان العرب، المحيط، دراسات العرب، بيروت د ط ج 1 1988 ص 68.
2. الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت لبنان، بدون ط 1995 ص 32.
3. الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية، المرجع نفسه ص 34.
4. المرجع نفسه ص 39.
5. الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية، المرجع السابق ص 47.
6. راجي محمد، روح التسامح في الفكر الراشدي، مجلة فكر ونقد، العدد 66، دار النشر المغربية، الدار البيضاء المغرب بدون طبعة 2005 ص 61.
7. الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية المرجع السابق ص 44.
8. المرجع نفسه، ص 46.
9. محمد أركون، التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي، مقال ضمن المجلة العربية لحقوق الإنسان، العدد 2، 1995، ص 11.
10. سورة المائدة، الآية 62.
11. أركون محمد، التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي- مقال ضمن المجلة العربية لحقوق الإنسان- عدد 2، 1995.
12. أركون محمد، التسامح واللاتسامح في التراث الإسلامي -المرجع السابق، ص 14.
13. أعراب إبراهيم، التسامح وإشكالية المرجعية في الخطاب العربي مجلة المستقبل العربي -العدد 224 1997 ص 55.
14. أعراب إبراهيم، المرجع السابق ص 55.
15. علوان عبد الله، معالم الحضارة في لإسلام و أثرها في النهضة الأوربية دار السلام بيروت لبنان ص 156.
16. علوان عبد الله، المرجع السابق ص 158.
17. سورة البقرة، الآية 256.
18. صحيح البخاري، رقم الحديث 67.
19. سورة فصلت، الآية 34.
20. سورة الأعراف، الآية 199.
21. سورة الزخرف، الآية 89.
22. رواه أبي داود
23. رواه أحمد
24. سورة يونس الآية 99.

تأصيل مفهوم التسامح في التراث العربي الإسلامي

25. شلتون محمد، الإسلام عقيدة و شريعة ، الإسلام عقيدة و شريعة، دار الشروق القاهرة، ط4، 1968، مصر.
26. حديث رواه الطبري.
27. سورة الحجر الآية 85.
28. الحديث 35، رواه مسلم.
29. سورة الأنبياء الآية 107
30. رواه مسلم.
31. عمرهاشم أحمد ، الإسلام دين التسامح ، دار الفاروق القاهرة مصر ط1 2006 ص11.
32. عبد الحسين؟، شعبان فقه الإسلام ، دارأراس للطباعة و النشر ط2011 أبيل العراق ص95 ص98
33. جيلالي بوبكر ، مقال ضمن مجلة الكلمة المعنون ب الإختلاف والتواصل و الحوار و التسامح العدد 84 الصادر سنة 2014 مؤسسة التاريخ للطباعة و النشر ، بيروت لبنا ص58.
34. سورة الروم الآية22
35. سورة الحجر، الآية 85.
36. سورة القلم، الآية 04.
37. أواميل علي، في شرعية الإختلاف المركز الثقافي ط 2 ، 2005، الدار البيضاء، المغرب.
38. الجابري محمد عابد، المثقفون في الحضارة العربية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان بط 2000 ص42
39. الجابري محمد عابد ، المرجع نفسه ص46.
40. الجابري محمد عابد ، المرجع نفسه ص48.
41. الجابري محمد عابد ، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بط 1997 ص24.
42. الجابري محمد عابد ، المرجع نفسه ص28 ص32.